مدرسة للخطيبات

فى مصر مدارس لمعلمات مختلفة الدرجات ، ومدارس للطبيبات ، ومدارس للمرضات ومدارس للفنون . . . إلى آخر هذه الخدمات الاجتماعية التى لابد من التخصص فيها أو على الأقل الإلمام بها قبل احترافها .

والبيت ليس أقل شأنا من المدرسة والمستشفى والمصنع ، فلم لا تكون له مدرسة واحدة بين هـذه المدارس الكثيرة ، تهيئ البنت لخدمته وتأسيسه والقيام بشأنه على الوجه الذى يليق بجلال المنزل ومكانة الأسرة ؟

إن الدنيـا تتغير والحياة تتطور ، والفتاة التى كانت تصلح لتكوين الأسرة فى المـاضى والتى لاتزال حتى اليوم صالحة لهذه المهمة فى الريف ، لم تعد قادرة ولا صالحة على النهوض بمهمتها فى المدينة بعد التطور الاجتماعى الحثيث الذى أصاب جميع تقاليدها .

فلا بد إذن من إعداد خاص لفتاة المنزل يؤهلها للاضطلاع بتبعاتها الكبرى ، ويتناسب مع أهمية دورها فى تكوين الجيل الجديد ، وقيامها على حراسة المجتمع فى أشخاص أطفالهـا الصغار .

حقيقة أن الطبيعة تشترك اشتراكا عظيما فى إعداد البنت للبيت ولحياة الأسرة ، وتوحى إليها بالواجب وتنبه غرائزها للعمل المطلوب ، ولكن الطبيعة وحدها لم تعد تكفى ، لأن الإنسان لا يحيا اليوم حياة طبيعية من جهة ، ولأن ظروفا خاصة قد تعرقل عمـل الطبيعة من جهة أخرى وتعمل على إفساد اتجاهها .

وليس هناك ما يعرقل عمل الطبيعة و يفسد اتجاهها القويم كالعقلية التعليمية التى تسود الآن مسألة تعليم البنات فى مصر ، فهـذه العقلية تؤهل الفتاة لكل شىء إلا الوظيفة الطبيعية الأولى لها ، وهى حياة المنزل والأمومة والأسرة !

فهى قادرة على أن تجعل منها مدرسة أو طبيبة أو محامية أو ممرضـة أو عاملة فى مصنع أومتجر أوأى شىء آخر ، بينما هى تصرفها بشدة وعنف عن حياة الأسرة ، وتضع بينها و بينها الحواجز والعراقيـل التى يصعب عليها تخطيها لو شاءت أن تلجأ للبيت أو شاءت الظروف أن تلجأ إليه .

ولا أتوانى عن اتهام هذه العقلية بأنها تهدم كيان الأسرة وتوهن بناء المجتمع ، وتشرد البنات المتعلمات عن جنسهن ، وتفسد عليهن المستقبل ، وتدعهن غير صالحات للوظيفة الطبيعية التى خلقن من أجلها ، ولا سيما فى شعب كالشعب المصرى مرتبط بتاريخ عريق من التقاليد والقيود الخاصة بالأسرة .

فبرامج التعليم الحالية جادة كل الجد فى أن تجعل من الفتاة رجلا ، سواء فى ذلك من يسلكن طريق التعليم العام فالتعليم الجامعى ، ومن يسلكن طريق التعليم النسوى .

فأما الفريق الأول فأمره معروف ، وهو يدرس دراسة الذكور ويعيش فى جوهم ويحاول تقليدهم حتى فى المشية والحركة ومخارج الحروف إلى درجة قد تضحك فى بعض الأحيان .

ومن العسير على هذا الفريق أن يرتد إلى حياة المنزل بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما بين جدران المدارس على نظام خاص ومواعيد خاصة . فالفتاة التى اعتادت هذه الأعوام الطويلة أن تخرج كل يوم فى الصباح وتعود فى المساء ، وأن ينصرف همها إلى الكسب والنجاح والتسابق مع زميلات وزملاء ، وألا تعرف شيئا عن حياة المنزل ، ولا تزور المطبخ لأنها لم تألفه ، أو لأنها لاتجد فضلة من الوقت بعد إجهاد الدرس تنفقها فيه لو أرادت أو أراد لها أهلها معرفة شىء عنه — هذه الفتاة ليس من الممكن عمليا ولا عقليا أن تركن بعد ذلك إلى البيت أو تألفه إن بينها وبينه حواجز من العادة التى تأصلت ، عادة الخروج فى الصباح والعودة فى المساء ، والاختلاط بالعدد الجم من الزميلات والزملاء فى جو أوسع وأمرح من جو البيت المحدود .

وقد تصلح هذه الدراسة لفريق خاص من الفتيات : هن فتيات الطبقة الراقية التى لا يطلب منها بذل مجهود خاص فى الحياة المنزلية . الطبقة التى تملك استخدام طباخ وسفرجى ومرضعة ومربية غير الخدم العاديين ، وتبقى ربة البيت للاطلاع الثقافى والمقابلات والزيارات ولعب التنس وحضور الحفلات .

بخلاف الطبقة المتوسطة والأقل منها فهاتان لا طاقة لها بهذا كله ، وهما فى حاجة الى ربة بيت لها شىء من الإلمام بحياة البيوت ، ولها عقلية بيتية وهذا هو المهم .

وأما الفريق الثانى — الفريق الذى يسلك طريق التعليم النسوى — فظهره يغر ، وبرنامجه يخدع ، ولكنه فى الحقيقة لا يزيد كثيرا على الفريق الأول فى الصلاحية لحياة البيوت . وذلك بفضل العقلية التعليمية التى تفصل بين المدرسة والبيت فى النظام والترتيب والاتجاه .

ذلك أن دروس التدبير المنزلى فى هذه المدارس لا تزيد على أنها مظاهر جوفاء لا يمكن تطبيقها فى الحياة العادية . ومن أمثلة ذلك أن البصل يخرط بالشوكة والسكينة ، وأن الجهد منصرف الى عمل المربيات والحلويات كأن البيوت تعيش عليها ، وبأنيتها حلويات مما يستطاع عمله فى بيوت الطبقات الفقيرة والمتوسطة . فطبق الحلوى الواحد قد يكلف خمسين قرشا .

وعلة ذلك أن المعلمات لم يعشن فى بيوت ، و إنما يأخذن دروسهن حتى فى التدبير المنزلى من كتب معظمها منقول عن الكتب الافرنجية ! وتلك علة العلل فى الحياة المدرسية.

ثم إن البرامج فى هذه المدارس مثقلة بالمواد النظرية التى تحفظها التلميذات عن ظهر قلب ، ويصرفن فى حفظها وتجويدها طول النهار ونصف الليل بحيث يتعذر على أية تلميذة أن تندمج فى حياة أسرتها أو تدخل مطبخها أو تدرى شيئا عن شؤونها العائلية طالما هى فى المدرسة .

حتى إذا عادت الى المنزل بعد غيبتها عنه سنوات طويلة عادت غريبة عنه ، بعيدة عن جوه ، لا تألفه ولا تطيق المكث فيه منفردة عن الصواحب والزميلات والمدرسات وجو الحجرات المدرسية والعقلية الدراسية التى لا تلتئم فى شىء مع عقلية البيوت .

ولعل من الطريف أن نتحدث هنا — بعد خبرة وتجربة — عن أوهام التلميذات الصغيرات التى يحطن بها حياة المدرسات !

إن هؤلاء الطفلات ليدهشن كل الدهش لو رأين إحدى مدرساتهن تدخل منزلا أو ترافق أحدا من أسرتها أو تشتغل بشأن من شؤون البيوت ! فهن لا يتصورن أن المدرسة مخلوقة عادية كأمهاتهن تشتغل بما تشتغل به المرأة العادية !

ومهما يكن مبلغ هذه الأوهام الصغيرة من الغرابة ، فإنها صادقة فى صميمها . فالواقع أن المدرسة والتلميذة على السواء تكادان تخرجان عن حياة المرأة الطبيعية ، تكادان تكونان جنسا آخر غير الجنس النسوى المعتاد . وهذه الأوهام أدل ما تكون على حقيقة حياة هؤلاء الشاردات عن جنسهن الخاسرات خسارة كبرى فى الحياة !

والسبب فى هذا كله كما قدمت هو العقلية التعليمية التى تحرص على التفريق التام بين جو المدرسة وجو البيت ، ولا تحاول أن تجعل من المدرسة بيتا منظما راقيا فتخفف من أثر السنوات الدراسية الطويلة فى إفساد غرائز الأمومة والأسرة والبيت فى نفوس المتعلمات .

وسبب آخر لعله يزول مع الزمن ، وهو أن المتعلمات لا يزلن قلة قليلة بين الفتيات مما يخيل لهن أنهن جنس آخر غير جنسهن ، وأنهن مخلوقات جديدة لا تمت بصلة للمخلوقات الأخرى الجاهلة ، وأن ميزتهن الكبرى يجب أن تكون هى الرجولة لا الأنوثة ، وأن خدمة البيت وظيفة الجاهلة التى لا تليق بالمتعلمة .

وهذه عقلية مؤقتة ستزول بعد تعميم التعليم بين الفتيات . ولكنها فى دورها الخطر فى هذا الجيل مما يضاعف أزماتنا الاجتماعية ، ويساعد العقلية التعليمية الحاضرة فيما تصنعه من إفساد الطبيعة النسوية وعرقلة وظائفها الأصلية .

لهذا كله يجب أن تكون فى مصر مدارس لتخطيبات . فقد فشلت مدارس التربية النسوية ومدارس الثقافة النسوية فى إعداد فتاة المنزل لأنها انساقت وراء المظاهر البعيدة عن حقائق البيوت . انساقت الى الشغل للمعارض ونيل الجوائز وعمل المربيات والحلويات والمفارش الغالية والفساتين الفاخرة التى لا طاقة لمتوسطى الحال بتكاليفها الباهظة .

ثم ارتكبت الغلطة نفسها التى لا مفر منها وهى الفصل بين البيت والمدرسة بحواجز لا يمكن تخطيها ، وبعقلية مدرسية لا تطيق العقلية المنزلية ولا تصبر عليها !

وأهم ما تصنعه مدارس الخطيبات فى نظرى ، هى أن تحاول ردّ الشاردات عن الجنس إليه ، وأن تفهمهن أنهن فتيات خلقن للمنزل والأسرة ، وأن تكون هى ذاتها على نظام البيوت العادية فى حياتها وطعامها وشرابها واستقبالاتها وزياراتها وعلاقات تلميذاتها ومدرساتها وناظراتها .

فإذا نجحت فى تقرير هذه الحقيقة فى أذهانهن بالإرشاد وبالعمل وبجو الحياة العامة فى المدرسة ، أخذت فى تلقين الفتيات وتدريبهن على التدبير المنزلى الواقعى فى حياة البيوت وقدمت الأهم على المهم .

وفى اعتقادى أن الشرط الأساسى لنجاح المدارس فى مهمتها هذه ألا تقيم معرضا واحدا ، وألا تطمع فى نيل جائزة واحدة . فالمعارض والجوائز هى اللعنة التى تصيب كل عمل جدى عندنا فتخرجه عن وضعه الطبيعى الى وضع مصطنع لا غرض له إلا المظاهر والإعلان !

وقد أنشأت اليابان مدارس من هذا الطراز لتقوم بالوظيفة التى عجزت عنها الجامعات والمدارس النسوية على السواء ، وفى مصر يمكن أن تبدأ هذه المدارس بعد الدراسة الثانوية مباشرة ، وأن يباح دخولها كذلك لخريجات الجامعة ومدارس المعلمات إذا شئن أن يتهيأن للحياة المنزلية ، وبذلك يجمعن بين الثقافة العقلية والتدريب المنزلى .

ومن المؤكد أن يقبل الشبان على خريجات هذه المدارس إذا أمكن أن تسلم هى الأخرى من لعنة العقلية المدرسية ، وأن يختار لها مربيات زاولن بالفعل حياة البيوت ، وعرفن شيئا من جوها الروحى والعقلى يطبعن به تلميذاتهن .

والواقع أن شبان هذا الجيل حائرون فى اختيار شريكات الحياة ، بين فتاة الجامعة المسترجلة النافرة من كل وظيفة نسوية ، وبين خريجات المدارس النسوية المولعات بالقشور والمظاهر البعيدات عن الجو المنزلى وعقليته الحقيقية ، وبين الجاهلات المدربات على حياة البيوت ، وليس بين هؤلاء جميعا من تصلح لتكوين الأسرة الصحيحة .

ومن المؤكد كذلك أن تقبل عليها الفتيات متى عرفن إقبال الشبان ، وفى اسم هذه المدارس نأل حسن يجذبهن اليها على كل حال !